« زوجي ! أهكذا تمضي في عنفوان الصبا وشرخ الشباب ، وتتركني وحيدة فريدة كاسفة ! هذا ابنك ما يزال في المهد ، وهذان أبواك الشقيان ! لن يشب ابنك يا هكتور عن طوقه ، لأن من دون هذا دك تلك الحصون ، وتقويض طروادة التي كنت حاميها وحامي نسائها والذاب عن بنيها ! يا لشقاء الحرائر اليوم يا طروادة ! إن هي إلا لحظات ثم يحملهن البحر إماء للغزاة ، وأنا وولدي في جملة السبي ياهكتور ... ولدي ! ولدي البائس الشقي ! إلى أين المسير ؟! إلى بلاد العدو الظالم لتكون من جملة الخدم والخول ... ليراك من يحسب أباك قد قتل أباه أو أخاه فيبطش بك ، وينتقم منك ، ويقذف بك من فوق برج أو حصن ...

« لشد ما كنت حزنا لأبويك ياهكتور ! بيد أنك كنت حزناً ممضا لمخلوق تعيس آخر هو أنا ... ! »

وهكذا بكت هذه الزوجة المخلصة الوفية زوجها ، وهكذا كانت دموعها الغوالي مداداً لا ينفد لمآسي يوريبيدز[1]

ما أجل هوميروس !!

وما أضيق هذه الفصول بأدبه الخالد الذي لا يبيد !! .

دريني خشبة

(١) كتب يوريبيدز في نساء طروادة مآسي كثيرة لم يصلنا منها إلا ثلاث : هيكوبا وأندروماك وسيدات طروادة

دراســـات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأدب والنقد والتاريخ

يُبيِّن الأديب شاعراً أو كاتباً عما يدرك ويتصوّر ويتخيل من مشاهد العالم ومعانيه . يصف مرأى جميلاً أو دميماً ويعرب عن إحساس مؤلم أو لذيذ . وتارة يكون موضوع الأديب مظاهر الأدب لا مظاهر العالَم . يصف قصيدة أو مقالاً يبيّن ما فيهما من بلاغة وجمال أو ما يعوزهما من قوة في المعنى وسلاسة في اللفظ ، أو يعرض للشاعر والكاتب يبين ما فطرا عليه من طبع وما وآتاهما من علم ، وما يُيسِّر لهما في موضوعات البلاغة وأساليبها أو يأخذ عليهما قصوراً في الإدراك أو عيّاً في البيان وهلم جرّا . وربما يتناول الباحث موضوعات من الأدب يصف تقلبها على مر العصور ، أو طائفة من الأدباء يصف توالَيهم على الزمن وأخذ بعضهم عن بعض وتقيّل بعضهم بعضاً . فيخرج للناس صورة للأدب في عصر أو أعصر

هذا كله من الأدب ، ولا يسوغ أن نخرج من الأدب المقالات التي تنقد الأدب أو تؤرخه

١ — لأن الباحث في قصيدة أو مقال يصف ما أوحت إلى نفسه هذه القصة وهذا المقال وما أدرك فيهما من جمال وما أشرب قلبه من حب أو بغض ، وفرح أو حزن . فهو كالذي يصف مشهداً جميلا أو دميماً في العالم أو أمراً حزيناً أو هيجاً من أمور الحياة

٢ — ولأن الناقد والمؤرخ مهما يستعمل الفكر والعقل ويذكر العلل والنتائج إنما يحكم بعاطفة ويقيس بوجدان فلن يستطيع أن يدخل دائرة العلم المحض ما كان موضوع بحثه الأدب والأدباء

يتبين من هذا أن الأدب له فروع : إنشاء ونقد وتاريخ . ويمكن أن نرد هذه الفروع إلى فرعين : أدب ذاتي[1] وأدب موضوعي ، وهذا يشمل النقد وتاريخ الأدب ويزيد وضوحاً فيما يلي :

الأدب الذاتي النفسي هو الكلام الذي ينشئه صاحبه إبانة عما في نفسه . والأدب الموضوعي هو الكلام الذي يقصد به تبيين ما في الكلام الأدبي من محاسن ومساوئ ، أو الإبانة عن فضل شاعر على آخر ، أو ترجيح طريقة من البيان على طريقة ، أو بيان أطوار الأدب في عصوره المختلفة الخ ...

والخلاصة أنه الكلام الذي يراد به وصف الأدب والأدباء

وفيما يلي أمثلة توضح هذين الضربين من الأدب :

— ١ —

قال البحتري في وصف دمشق :

إذا أردتَ ملأتَ العين من بلد ... مستحسنٍ وزمان يشبه البلدا
يمشي السحابُ على أجبالها فرَقاً ... ويصبح الروضُ في صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلا ... أو يانعاً خضراً أو طائراً غرِدا

وقال أبو هلال العسكري :

أما ترى عود الزمان نَضْرا ... ترى له طلاقة وبشرا
أتته ألطافُ السحاب تترى ... وساقت الجنوب غيما بكرا
تبسط في الصحراء بُسطاً خُضرا ... وتمنح الروضة زهرا صُفرا

(١) التعبير بالذاتي والموضوعي أدق من التعبير بالانشائي والوصفي

ونرجسا مثـل العيون زهرا وأقحوانا كالثغـور غُرّا
كأنما يسوغ فيهـا تبرا كأنمـا يروق فيها عطرا
كأنما ينثر فيها درّا ... الخ

وقال أبو الطيب فى رثاء أخت سيف الدولة :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبرٌ فزعت فيه بآمالى إلى الـكذب
حتى إذا لم يدعْ لى صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى
تعثرت به فى الأفواه ألسُنهـا والبرد فى الطرق والأقلام فى الـكتب

وقال الحسين بن مطير الأسدى أحد شعراء الحماسة يرثى معن بن زائدة الشيبانى :

ألِمّا على معن وقولا لقبره : سقتك الغوادى مربعاً ثم مربعا
فيـا قبر معنٍ أنت أول حفرة من الأرض خُطّت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحرُ مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدّعا
فتى عِيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى معن مضى الجود فانقضى وأصبح عرنين المكارم أجـدعا

وقال ابن المعتز يصف سامرّا بعد أن تركها الخلفاء إلى بغداد فسارع إليها الخراب :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها ، فشاهد الناس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، وكأن عمرانها يُطوى ، وكأن خرابها ينشر ، وقد وكلت إلى الهجر نواحيها ، واستحثّ باقيها إلى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقّ جوار ، فالطاعن منها ممحوّ الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام ؛ ليس له زاد فيرحل ، ولا مرعى فيرتع الخ »

فى هذه القطع كلها تجد البين ينشئ ما يترجم عما شعر به وتخيله وتصوره حينما رأى منظراً بهيجاً من السحاب والرياض ، أو مرأى كئيباً من الخراب والاقفار ، وحينما علم موت صديق يعز عليه أو عظيم ، كان يزجى آماله إليه . وكل هـذا تصرف فى معان نفسية يُحسها المتكلم نفسه . فهذا أدب ذاتى

— ٢ —

فإذا تبينت هذا فانظر إلى الأمثلة الآتية :

قال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى كتاب الوساطة :

« وقد علمت أن الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجآذر ، ونواظر الغزلان ، حتى إنك لا تكاد تجد قصيدة ذات نسيب تحلو منه إلا فى النادر الفذ . ومتى جمعت ذلك ثم قرنت إليه قول امرئ القيس :

تصدُّ وتُبدى عن أسيل وتتّقى بناظرة من وحش وَجرة مطفل

أو قابلته بقول عدىّ بن الرّقاع :

وكأنهـا بين النساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسم

رأيت إسراع القلب إلى هذين البيتين ، وتبينت قربهما منه ؛ والمعنى واحد ، وكلاهما خال من الصنعة ، بعيـد من البديع . إلا ما حسن به من الاستعارة اللطيفة التى كسته هذه البهجة . وقد تخال كل واحد منهما من حشو الـكلام ما لو حُذف لاستغنى عنه وما لا فائدة فى ذكره لأن امرئ القيس قال : « من وحش وجرة » . وعدىّ قال . « من جآذر جاسم » ولم يذكرا هذين الموضعين إلا استعانة بهما فى إتمام النظم وإقامة الوزن ، ولا تلتفتن إلى مايقوله المنويون فى وجرة وجاسم فإنما يطلب به بعضهم الإغراب على بعض ، وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء ، وسألت من لا أحصى من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلاً على وحش ضرية وغزلان بسيطة . وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف النشأ والمرتع ، وأما العيون فقل أن تختلف لذلك . وأما ما تم به عدى الوصف ، وأضافه إلى المعنى المبتذل بقوله على أثر هذا البيت :

وَسْنان أيقظه النّعاس فرنّقت فى عينه سِنة وليس بنـائم

فقد زاد به على كل من تقدم ، وسبق بفضله جميع من تأخر . ولو قلت : اقتطع هذا المعنى فصار له ، وحُظر على الشعراء ادّعاء الشرف فيه لم أرنى بعدت عن الحق » اهـ

الجرجانى فى هذه القطعة يفضّل بيتى امرئ القيس وعدىّ على أبيات الشعراء فى معناها ، ثم يبيّن ما فيهما من الحسن وما تخللهما من الحشو ، ثم يصف بيت عدىّ الثانى بأنه أحسن بيت فى معناه . فالجرجانىّ لم يُبن هنا عما أحسّه هو فى وصف

العيون ، ولـكنه ينظر فيما قال غيره فيبين ما فيه من إجادة وتقصير ويبين أى الأبيات أبلغ وهكذا . فهو إنما يصف كلام غيره ويقيسه بذوقه وتصوره[1]

فهذا أدب موضوعى ...

وقال بشر بن المعتمر[2] :

« ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ؛ فيجعل لـكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولـكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الـكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات : فإن كان الخطيب متكلماً تجنّب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه إن عبّر عن شىء من صناعة الـكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارة أفهم ، وإليها أحنّ ، وبها أشغف ... الخ »

وقال أبو العباس الناشئ[3] :

لعن الله صنعة الشعر ما ذا ... من صنوف الجهّال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما ... كان سهلاً للسامعين مبينا
. . . . . .
إنما الشعر ما تناسب فى النظ ... م وإن كان فى الصفات فنونا
فأتى بعضه يشاكل بعضا ... قد أقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما ... تتمنّى، لو لم يكن ، أن يكونا
فتناهى عن البيان إلى أن ... كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الألفاظ فيه وجوه ... والمعانى رُكِّبن فيه عيونا
. . . . . .
فإذا ما مدحت بالشعر حراً ... رُمتَ فيه مذاهب السهبينا
فجعلت النسيب سهلاً قريبا ... وجعلت المديح صدقاً مبينا الخ[4]

ترى فى قول بشر والناشئ وصف خطة للبيان ، ودعوة إلى طريقة فى الإنشاء يريانها الطريقة المثلى وهذا أدب موضوعى أيضاً

واقرأ هذه القطعة أيضاً : قال أبو منصور الثعالبى فى مقدمة اليتيمة :

« لم يزل شعراء الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها فى الجاهلية والإسلام ... والسبب فى تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إيّاهم

ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة العبارة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان ، وبنى ورقاء هم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين آداب السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل — انبعثت قرائحهم فى الإجادة فقادوا محاسن الـكلام بألين زمام ، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا »

يوازن الثعالبى فى هذه الأسطر بين شعراء الشام وشعراء العراق ، ويفضّل الأولين ، ثم يبيّن الأسباب التى فضلتهم على غيرهم ؛ فهو يصف كلاماً بالجودة وشعراً بالتفوق ويحاول أن يعدد الأسباب التى أجادت هذا الـكلام ، وقدمت هؤلاء الشعراء

وهذا أدب موضوعى كذلك

واقرأ بعدُ هـذه الجملة من مقدمة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة :

« هذا الـكتاب ألفته فى الشعر ؛ أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو الـكنية منهم ، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ؛ وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون

وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ، ويستحسن لها إلى غير ذلك »

تجد صاحب الـكتاب يعمد إلى تاريخ الشعراء بذكر أخبارهم وأزمانهم وإلى تأريخ الشعر بذكر ما أخذه المتأخر عن المتقدم من المعانى والأساليب — زيادة على النقد وتبيين المستحسن المستقبح ، والخطأ والصواب . وهذا يدخل فى الأدب الموضوعى كذلك .

(١) أمثلة أخرى فى أسرار البلاغة ص ٤٠ وما بعد (ط) المنار
(٢) البيان ج ١ ص ١٠٦ (ط) التجارية
(٣) العمدة ج ٢ ص ٩١ ط) النمانى
(٤) مثال آخر بعد هذا فى الـكتاب نفسه (العمدة)